دراسة شاعر

جوفري شوسر

للأستاذ أحمد الطاهر

إذا أنست لهذا الشاعر وتذوقت شعره ، فإنك واجد فيه صورة ناطقة لبلاد الإنجليز في العصور الوسطى ، أو في القرن الرابع عشر الميلادي . وأجل ما في هذه الصورة أن « شوسر » يمثل بأسلوبه البارع — الذي وصفنا في مقال سابق — نظرية اجتماعية أخلاقية ، تتلخص في أن الغرائز الإنسانية باقية كما هي على مدى الدهر ، لا تتغير ولا تتحول ، وهي سواء في الناس جميعاً ، وأما ما يكتنفها أو يخفيها من التخلق أو اكتساب العادات أو ما إلى ذلك ، فما هو إلا عرض لا يتصل بجوهرها . خذ مثلاً رجال الدين — كما أراد شوسر — أولئك الذين هاجمهم في عنف وشدة ، تر أنه لا يحفل بما يبالغ فيه بعضهم من إبداء النسك والتبتل والتظاهر بالتأبد والتنطس ، وإنما يعمد إلى المسوح السوداء فيرفع أسدالها ، وإلى المسابح فيقطع أوصالها ، ثم يبرز لك الرجل من وراء ذلك إنساناً ككل الناس : يأكل ويشرب ويلعب ويطرب ويضطرب في كل شأن من شئون الحياة ، كما يضطرب سائر الناس . فينزع إلى الهدى والرشد أحياناً ، وإلى الغواية والعثرة أحياناً . والشاعر حين يتناولهم بقلمه ، لا يصدر عن ضغينة في نفسه ، ولا عن ميل إلى التندر والتظرف ، ولا عن استخفاف بالدين . كلا ، بل لقد كان هو من أكثر الناس تديناً وإغراقاً في الصلاح والتقوى . إنما هي أسباب أخرى لو سمعها اليوم « شوسر » لم يرض عنها ، أو لم يعترف بها : فعصره كان عصراً تتلى فيه مراجل الثورة النفسية ، يؤجج أوارها عناصر أربعة متنافرة متدابرة : الكنيسة والشعب والبرلمان والقصر .

ففي القصر إدوارد الثالث ثم ريشارد الثاني يرهقان الشعب بالجبايات والأتاوات ، ويسرفان في التمكين للأشراف وأصحاب الضياع من إذلال الدهماء عبيدهم ومواليهم يبتزون جهودهم ويستغلون نشاطهم ، ولا أقول أموالهم فما كان للعبيد والموالي أموال ولا أملاك . والبرلمان يأنس في الملك ضعفاً وخوراً في حين من الأحيان ، وجبروتاً غاشماً في حين آخر ، وطراءة في الشباب في عهد من العهود فيحفزه للنضال حقه المهضوم وسلطانه المكلوم وتغريه كثرته فيثور ثم يناوئ ثم يعتدي ثم يعالي . كل ذلك على حساب الشعب ؛ والشعب مرهق مغلول ضعيف مغلول يتلقى العذاب من ملك يرميه بالتمرد ويكديه بالجباية ، ومن أمير أو شريف يتهمه بالكسل ويرهقه بالعمل . والكنيسة يطيب لها أن تثبت وجودها بأن تتهم الناس بالكفر والضلال وتعزو سوء الحال إلى إسراف الملك في سلطانه والحد من سلطانها فتصور الشعب فريسة أطماع الملك الضليل ، وتصور الملك مغلوباً على أمره من شعب مغرق في الأباطيل ، وتستعدي الشعب على الملك والبرلمان يوماً ، وتستعدي البرلمان أو الملك على غيره يوماً آخر . وهكذا ألقيت بينهم العداوة والبغضاء وألبسوا شيعاً وأذبق بعضهم بأس بعض . تلك أمة قد خلت .

وهنا نتساءل أين موضع شاعرنا من هذا المعترك المصطخبة أمواجه المتلاطمة أفواجه ؟ كان من رجال القصر وسفرائهم ومن خدم الملك ، فليس عجيباً أن نراه من رجال الدين في الموضع الذي رأيناه ؛ وليس غريباً أن نراه يصورهم بالصورة التي تفزعهم وإن تلطف أو داجى ، ولا يتعاظمنا أن ينظم قصة فيسلكهم في صدرها ساخراً مقذعاً متندراً : قال :

في عصر الملك الصالح أرثور كنت ترى بلادنا الإنجليزية مشرقة بالبشر رافلة في حلل النعيم تمرح في أرضها وغابها أميرات الجن تحوطهن صاحبات لهن من الخود الرعابيب ، فإذا أمسى المساء خطرن على مروج زهر ، وإذا أصبح الصباح رأيت في الأرض ما تناثر من عقود الزهر التي نظمنها في حلقات رقصهن . وأما الآن فما بقي في الأرض إلا شحاذو الكهان والرهبان نفروا كل مليحة من أميرات الجن ، وأفزعوا كل غضة من بنات الغاب ، وملئوا المكان بعد أن كان زاخراً بالأميرات . كان أحد فرسان ذلك الملك الصالح ممتطياً صهوة جواده وعلى وجهه سحابة من الحزن وغشاوة من الشجن فأفضى به التسيار إلى جانب من الغابة قد اتخذته أميرات الجن مرقصاً فركض إليهن جواده يلتمس عندهن شفاء من آلام نفسه وأوصاب صدره ، فما إن رأينه حتى

شردن وتوارين ولم تبق إلا عجوز شمطاء شوهاء قامت إليه وأخذت عليه السبيل ثم قالت: « أأكول فى عونك أيها الفارس؟ » قال: « نعم أيتها الجدة، وإن لم تفعلى لأكون من الهالكين » لقد سلفت منى بادرة لا تليق بالسادة الأشراف. أسأت إلى فتاة فحكمت علىّ الملكة بأن أقصى عن بلاطها سنة ثم أعود فأنبئها وفتياتها الفاضلات بجواب عن سؤال حيرتنى به ألا وهو « ما أحب شىء للمرأة؟ » فإن أعجبهن جوابى كنت سعيداً موفقاً، وإن أخطأنى التوفيق فهنالك هلاكى. ولقد تصرم يا جدتى العام بعد أن التمست الجواب عند الأمهات والزوجات والعاتقات فما اتفقن على رأى ولا عرفن شيئاً واحداً هو أحب ما يحب النساء: قيل لى إن النساء يعجبهن الملق والمداجاة؛ وقيل لى أحب شىء إليهن الحب والهوى؛ وقيل بل الزواج وقيل المرح والطرب؛ وقيل التكريم والثناء، وقيل البذخ والثراء؛ وقيل غير هذا وأنا لا أزال حائراً مضطرباً. فهل عندك الجواب وعندى لك كل حاجة تريدين قضاءها وكل مطلب تجاب؟ » قالت العجوز: «أتقسم أن لى عندك كل حاجة مقضية؟» قال: نعم. وأقسم بشرفه ليفينّ لها بما وعد: قالت: «هلم معى إلى القصر» وأفضت إليه فى الطريق بالجواب. فلما بلغا القصر عقدت الملكة مجلساً ومثل أمامها الفارس وقالت له: « حياتك رهن بالجواب عن هذا السؤال: أى شىء أحب إلى المرأة سواء أكانت عانساً أم بكراً أم زوجة » قال الفارس: « ليس أشهى إلى المرأة يا صاحبة الجلالة من السيطرة والسلطان تشتهى السيطرة على زوجها وعلى بيتها وعلى ثروتها وعلى ضيعتها وعلى كل شىء وكلهن فى ذلك سواء. أنتن أيتها النساء تردن الحكم، تردن التحكم فى جميع الناس، تردن أن يكون لكن الأمر وعلى الرجال الطاعة. » وما فرغ من إلقاء جوابه حتى أمّن الحاضرات عليه وغشيت وجه الملكة حمرة لا تخفيها. وهنا برزت العجوز وصاحت: « أنا يا مليكة صاحبة هذا الجواب لقنته إياه بعد أن أقسم ليأتمرن بأمرى ويجبن مطلبى؛ وهأنذا بحضرتك أتنجّزه وعده. وما حاجتى إلا أن يتزوجنى » شده الفارس لهذا المطلب العسير الفظيع، والتمس إليها الوسيلة للخلاص من وعده، وأخذ يغرى هذه العجوز بالثروة والنشب فما أغنى عنه ماله وما كسب، وكرهت الملكة أن تكون هذه الشمطاء زوجة لفارس من فرسان القصر؛ ولكنها آثرت ذلك على أن يدنس الفارس شرفه فينقض عهده وينكث وعده وأمرته أن يتزوجها. وبنى بها الفارس مكرهاً فى ليلة لم ير أسود منها. ولم يخف عليها حنقه وغيظه إذ قال: « ليت مصابى بك كان عند قبح وجهك وكبر سنك، ولكنه تجاوز هذا إلى خسة منبتك وضعة نشأتك » قالت العجوز: « أهذا كل ما يؤلمك - ألا تعلم أن شرف المنبت وطيب الأعراق ليست إلا ثروة عتيقة موروثة، وماذا يغنى عنك حسبك ونسبك؟ إن كان لك مجد تليد فالفضل فيه لمن كسبه من آبائك وأجدادك؛ وإن كان لك مال قد خلفوه لك واسم كريم قد ألصقوه بك واعتمدت على هذين فى طلب المجد والشرف، فما أخيب مسعاك وما أبعدك عن بلوغ القصد. المجد والشرف لا يشتريان بالمال. هأنذى امرأة وضيعة المنبت لا أملك طارفاً ولا تليداً، ولكننى لست امرأة سوء هل كان المسيح غنياً وهو مثلنا الأعلى فى المجد والشرف؛ كلا بل كان جهده أن يفعل أفعال الكرام. أما قبح وجهى وكبر سنى فإنى أعرض عليك فى ذلك اختياراً: أتريدنى عجوزاً حصيفة الرأى أم فتاة ضالة فى سبيل الحياة؟ » قال الفارس: « الرأى لك أيتها العجوز العاقلة » قالت: « ألا ترى أننى بسطت عليك سلطانى وأخضعتك لأمرى فأذنت لى أن أفعل ما أريد » قال: « نعم » قالت: « انظر إلىّ واعجب لما تحولت إليه قسماتى » فنظر الفارس وإذا بالعجوز قد تحولت إلى فتاة نضرة غضة لم تقع عيناه على أجمل منها.

الصاغ
أحمد الطاهر

(الأسكندرية)